الفصل الثامن
النمر والنعامة

قضينا بضعة أيام بين النجود البركانية في **جبل طبيق**، حيث ترتفع الصخور الشديدة الانحدار والصخور القممية والمتشققة إلى مقدار ستمئة قدم فوق مستوى المراعي المفروشة بالورود والوديان، المغطاة بالجلاميد البركانية السوداء. إنها منطقة ذات جمال وحشي تكثر فيها الغزلان وطيور الصيد.

وحدث هناك أن وجدنا ـ أنا وفارس أثناء مطاردة فريسة ـ ثلاث خيام منصوبة في أحد الأغوار. إنها تخص تلك المجموعة الغريبة **الصلبان؟ (المفرد: صليب) وهم قناصة وحرفيون بدو**. وفي العرف العام فإنهم يشبهون الغجر بَصّارون يطببون الإنسان والحيوان ويحبون الموسيقى ولديهم ميل للأمور الغامضة والخرافية.

الصلبان يبزون البدو الآخرين في الصيد، واقتفاء الأثر والاستطلاع، ويعرفون الصحراء أفضل من البدو الرحل الآخرين، إذ إنهم يعرفون دون سواهم كثيراً من الآبار المنعزلة. أصلهم لغز وعددهم قليل، ولكنهم يتكتلون في تنظيمٍ عشائري بقيادة زعيم لهم، ويدفعون الأتاوة للرولة والقبائل البدوية الأخرى.

obeikandl.com

وبالمقابل تعيّن هذه القبائل من بين أفرادها «أخاً» **للصلبان** مهمته حماية مصالحهم.

وفي تلك الفترة كان زعيم **الصلبان رالب** ولد **تولهان**. وثبت أن هذا المخيم الذي اكتشفناه يخص هذا الرجل. كان **رالب** بصحبة زوجته وأولاده وأخويه وعائلتيهما في طريقه إلى الرولة في الشمال (إذ إن ما بين /٥٠٠ ــ ٦٠٠/ ميل لاتعني شيئا لهؤلاء الناس) ليعمل مع «أخيه» هناك على استعادة ثلاثين جملاً **صليبياً** اغتصبتها ـ كما قال ـ عصابة رولية مجهولة.

إحدى خيام هؤلاء الغجر البدو صنعت من جلود الغزلان المخيطة، وبدلاً من الأوتاد استعملوا قرون بقر الوحش. لاحظت أن هؤلاء القوم ليست لديهم أوانٍ مصنوعة من الخشب، إذ إن كل ما رأيته مصنوع من الجلد. فبدلاً من السجاد والوسائد استعملوا جلود الحمير والنعامات والنمور وبقر الوحش، كما أن ملابسهم أيضاً ـ باستثناء العباءات ـ مصنوعة من جلود الحيوانات المدبوغة وغير المدبوغة.

واقترح فارس على **رالب** أن يكون دليلنا إلى النفود، ووعده بأن يأخذ على عاتقه مسألة الجمال، ويجمعها حالما يعود إلى القبيلة، وفي نفس الوقت تتجه عائلة **رالب** شمالاً بدونه. قبل **رالب** هذا العرض وبعد ذلك بوقت قصير غادرنا **جبل طبيق** المقفر.

وتبعنا قيادة **رالب** لعدة أيام هادئة حتى وصلنا أحد الوديان، فأشار **رالب** إلى آثار نمر. تركنا جمالنا تحت الحراسة وتبعنا الأثر على ظهر جيادنا لبعض الوقت. وعندما قبعت[1] خيولنا فجأة عبر خياشيم مفتوحة حتى آخرها لأنها شمّت رائحة الطريدة. نزلنا عن الجياد وزحفنا بحذر نحو أحد الجروف التي افترض **رالب** أن النمر يختبيء عندها. حقاً كان النمر هناك، ولكن آثاره استمرت بعد ذلك: تأكد **الصليبي** أن النمر اصطاد غزالاً في ذلك المكان وسحبه بعيداً.

---

(١) القبع: صوت يردده الفرس من منخره إلى حلقه إذا رأى ما يزعجه.

إذن لابد أن يكون النمر الكبير قريباً، وعلينا أن نضاعف الحذر. تفرقنا في الوادي وتقدمنا فرادى.

وحالاً رأيت ـ على مسافة أقل من خمسين خطوة ـ بجانب ضفة ناتئة تلمع فوقها الشمس نمرين صغيرين يلعبان وحولهما بقايا وجبة الطعام الأخيرة: متكسرة وقطع متناثرة من جلد غزال. كما أنني رأيت الأم ممددة في الظل ولا يظهر منها سوى جزء من الظهر والذيل. أشرت إلى **فارس ومناحي** وراقبنا المشهد النادر لفترة من الوقت. بحثنا بأنظارنا عن **رالب** ولكن عبثاً، وبالطبع لم يكن بإمكاننا الصراخ. رفع فارس بندقيته وأفهمني بالإشارة أنه ينوي التصويب على الأم فلربما يمكن الاستيلاء على الصغيرين حيَّيْن. وفجأة انطلقت رصاصتان من الجانب الآخر وامتزج صداهما في الوادي، وبذلك انتهت لعبة اللصين الصغيرين إذا ارتميا على الحصا يرتجفان. واستيقظت الأم من نومها فقفزت فجأة ورمت بنفسها فوق صغيريها، وأمسكت بأحدهما بين أسنانها وحاولت الهروب، لكن مناحي الذي كان يراقب بهدوء أطلق النار. قامت النمره الكبيرة بقفزة بهلوانية وارتمت بلا حراك. وتدحرجت الحجارة والرمال من الضفة فلم يتحرك الحيوان، فبدا من كل الدلائل أن النمرة قد ماتت. عندها صرخنا فظهر **رالب** معتذراً لإطلاقه النار على الصغيرين لأنه لم يستطع رؤية الأم من مكانه.

استقرت الرصاصة القاتلة في زور النمرة. صاح **رالب** «يا بنت الرهيبة» حقاً إنها قطعة هائلة. كانت أكفها الصغيرة القوية مزودة بمخالب بطول إصبع الإنسان. ولابد أنها مزّقت الوريد الوداجي من الغزلان والوعول، وقصمت ظهر الكثير من الماعز.

وغرز الصليب سكينه الطويلة في جسم النمر، ثم سحبها عبر الزور والأكعاب، وقطع الرأس والأكف ورماها عند قدمي كتذكار. ثم فتح معدتها وصدرها وانتزع القلب. وكأي حيوان وحشي غرز أسنانه في لحمها الدامي وامتص ملء فمه من دمها معتقداً أن هذه الجرعة الفعالة تضيف شيئاً إلى جسارته وقوته.

وأثناء مسيرنا اكتشف **رالب** آثار أقدام كبيرة ـ زوجين من أصابع القدم ـ «للحيوان الذي ليس له أذنان» كما يسمي البدو النعامة. وتبعنا الأثر الواضح حتى استطعنا رؤية الطائر من بعيد بواسطة المنظار وهو يأكل. تقدمنا بحذر، مما جعلنا نقضي ثلاث ساعات في قطع ميلين أو نحو ذلك، ثم انتظرنا بينما كانت النعامة تتمتع بحمَّام شمسي. وفي الحال ظهرت نعامة أخرى من الأرض المجاورة لم نكن نراها من قبل، وانضمت إلى النعامة المستحمّة وهي إشارة واضحة إلى أنهما يحضنان صغارهما وأن العش قريب جداً.

أثناء حرارة الظهر استراح الطيران، ثم عادا إلى الأكل في المساء وقد اختفيا عن ناظرنا عدة مرات، ولكن **رالب** أكد من خبرته السابقة أن العش قريب من تلك البقعة التي ظهرت منها النعامة الثانية. وقبل غياب الشمس عاد الطيران إلى نفس المكان.

وتقدمنا ـ فارس ومناحي وأنا ـ بحذر متتبعين حرفياً تعليمات **رالب** الذي بقي مع الخيول. وزحفنا نحو الطيرين الراقدين حتى مسافة خمسين خطوة واختبأنا. ونظراً لذهاب الوهج بعد غياب الشمس استطعت بسهولة أن أميّز الذكر من الأنثى.

وفضحتُ نفسي بحركة خفيفة، وفي الحال نهضت النعامتان وركضتا بجنون وهما ترفرفان بجناحيهما. ثم هربت الأنثى مع سبعة من صغارها وتبعها الذكر للحماية. ولكن الصغار ركضت في كل اتجاه واستطاع فارس إمساك ثلاثة منها وربطها بأحزمة جلدية.

وأتى **رالب** مع الخيول فحذرنا من مطاردة النعامتين لأنهما ـ في حال الهروب ـ لا يمكن أن يلحق بهما ولا أسرع الخيول، ولكن إذا لم تزعجهما فسيجريان في دوائر ثم يعودان إلى صغارهما.

واهتم فارس باصطياد الذكر فطارده. ولكن الذكر بقي في المؤخرة حارساً، وتلفت مراراً إلى الخلف أثناء جريه وهو يحرك بجناحيه، وعندما رأى

الفرسان يطاردونه ترك عائلته واندفع باتجاه مستقيم تارة وباتجاهات متكسرة تارة أخرى.

وانضم **رالب** ومناحي وأنا إلى المطاردة، وخلال ساعة اقتربنا لدرجة جعلنا النعامة تجري باتجاه فارس الذي رمى نفسه عن ظهر حصانه السريع، الذي جرى لبعض الوقت قبل أن يتوقف. وركع فارس وصوّب ثم أطلق النار مرتين. وبعد أن انطلقت الرصاصة سقط الطائر وتمدد على جانبه وهو يرفرف بجناحيه. نهض فارس ورمى بندقيته وعباءته ثم ركض نحو الطائر الذي يعاني من سكرات الموت. أخرج سكينه من نطاقه وغرسها في رقبة الطائر قرب عظام الصدر. ثم حنى الجناحين الثقيلين إلى الخلف وانتزع الريش الأبيض الذي يبلغ طوله قدماً واحداً.

واعتبر **رالب** الفريسة ثمينة، فسلخ الطائر بخنجره وفتحه وأخرج أفضل أعضاء الصدر بعينه الخبيرة، وبعد الشوي كان طعم اللحم الطري يشبه لحم الحباري. أما بالنسبة لي فإن الكبد والقلب كانا أفضل، ووجدت أن القلب صغير جداً بالنسبة لجسم هذا الطائر الكبير.

أثناء مطاردتنا لذكر النعام لاحظت أن الأنثى عادت بعد دورة كبيرة إلى مكان العش، وأن الصغار استجابت لنداء الأم فخرجت من مخبئها ووضعت نفسها تحت رعاية الأم. ولكن الصغار الثلاثة التي أمسك بها فارس وربطها لم تستطع الإفلات، وعبثاً حاولنا أن نجدها. وعندما يئسنا تقريباً وجدناها مختبئة في الرمال وساكنة كالفئران، فأخذها فارس ووضعها في خرج جمله.

وأثناء الرحلة الطويلة كان فارس يطعمها البراعم والأغصان الطرية وخصوصاً اليرقات. كانت النعامات متوحشة وخجولة في البداية ولكن أخضعها منذ اليوم الثاني، وقبل بضعة أسابيع بدأت بكل اطمئنان تأكل من أيدينا.

* * *